أثر البيئة الطبيعية في الفن العراقي القديم

م. محمود حسين عبد الرحمن*

●مقدمة:

أراد الإنسان منذ بداية حياته في العصور الموغلة في القدم أن يقف على أسرار بيئته الطبيعية المؤثر المباشر عليه لان «الفرد نقطة البدء بكل شيء»[1] فمن تلك البيئة يستمد قوته ومأمنه لذلك جسدها في لوحات لا تخلو من الجمال إذ كانت نظرته إليها من منظر سحر يجلب له فائدة اقتصادية فحسب، فكانت تلك اللوحات محل اندهاش إلى اليوم لاسيما وإنها نُفذَتْ على جدران الكهوف وسقوفها وعلى الصخور المختلفة والعظام والأصداف والعاج وغيرها. وبمرور الدهور والعصور أخذت هذه المشاهد تحاكي نوعا ما الطبيعة، فتارة يرسم الحيوانات المتنوعة وحدها وتارة يرسمها مطاردة من قبل الإنسان نفسه وتارة أخرى في مستنقع للمياه وأخرى في الغابات، وخير دليل على ذلك ما تركتها أيادي ابن الرافدين وابن النيل على جدران القصور والمعابد والزقورات والأهرامات بل حتى على الفخار والرقم الطينية شواهد طبيعية ناطقة كان الغرض من اغلبها هو التفنن في محاكاة البيئة الطبيعية ومآثرها.

كان الهدف من هذه الدراسة، هو الكشف عن أثر البيئة الطبيعية في الفن العراقي القديم كعنصر أساس وجمالي في تكوينها. والتعرف على التقنية التي نفذت بها. وكانت حدود هذه الدراسة هي (اختيار بعض من الأعمال الفنية من ٣٠٠٠-٥٦٢ ق.م)، التي حصل عليها الباحث من المتاحف الوطنية والمنشورات الثقافية والمصادر الفنية).

* جامعة بغداد-مركز بحوث ومتحف التاريخ الطبيعي العراقي

وتكمن أهمية هذه الدراسة في تسليط الاضواء على البيئة الطبيعية وأثرها في الفن العراقي القديم وتسهم في رفد المكتبات بمعارف أُخر. ثم قام الباحث بتحديد المصطلحات التي وردت فيها حسب متطلبات المنهجية البحثية المعتمدة: فيُعرف الأثر في اللغة: الأَثر: بقية الشيء، والجمع آثار وأُثور. وخرجت من رسم الشيء. والتأْثير: إِبْقاءُ الأَثر في الشيء. وأَثَّرَ في الشيء: ترك فيه أَثراً. والآثارُ: الأَعْلام[٢]. وفي الاصطلاح: نتيجة الشيء[٣]. وإجرائياً: مجموعة من العلامات المرئية التي كونتها العوامل البيئية والإنسانية.

وتُعرف البيئة في اللغة: بانها: منزلُ القومِ في كل موضعٍ[٤]. وفي الإصطلاح: هي مجموع الأشياء والظواهر المحيطة بالفرد، والمؤثرة فيه. تقول البيئة الطبيعية، أو الخارجية، والبيئة العضوية أو الداخلية، والبيئة الاجتماعية، والبيئة الفكرية. وهي بهذا المعنى تُطلق على الزمان والمكان من جهة ما هما إطاران محيطان بالظواهر الطبيعية. والبيئة مرادف للوسط، يُقال: فلان في وسط القوم أي بينهم[٥]. أما إجرائياً: هي الأشياء كلها من ظواهر طبيعية أو مشيدة التي تحيط بنا وتؤثر على وجودنا، أو أنها مجموعة من الأنظمة المتشابكة مع بعضها البعض لدرجة التعقيد والتي تؤثر فينا وتحدد بقاءنا في هذا العالم. يلي هذه المقدمة ثلاثة مباحث: الأول: مفهوم البيئة ومواءمة الإنسان لها، والثاني: أثر البيئة الطبيعية في حياة الفنان. أما المبحث الثالث: مآثر البيئة الطبيعية في الفن العراق القديم. ثم الخاتمة احتوت أهم النتائج وأهم المصادر التي اعتُمِدت في هذه الدراسة.

● مفهوم البيئة ومواءمة الإنسان لها

كثرت الآراء وتعددت المفاهيم حول مدلول البيئة، حيث ارتبط بنمط العلاقة بينها وبين مستعمليها فيُقال مثلا: البيئة الزراعية، والبيئة الصناعية، والبيئة الصحية، والبيئة الاجتماعية والبيئة الثقافية، والسياسية...، أي علاقة نشاطات بني البشر المتعلقة بهذه المجالات. اشتق مفهومها من المصطلح العلمي (Ecology)، ومعناه في اللغة العربية (علم البيئة)، الذي وضعه العالم الألماني أرنست هيجل من دمج كلمتين يونانيتين الأولى: (Oikes)، ومعناها مسكن، أما الثانية فهي (Logos)، وتعني العلم، ذلك في عام ١٨٦٦م ووضع له التعريف الذي يقول: «هو العلم الذي يدرس علاقة الكائنات الحية بالوسط الذي تعيش فيه، ويهتم هذا العلم بالكائنات الحية وتغذيتها، وطرق معيشتها وتواجدها في مجتمعات أو تجمعات سكنية أو شعوب، كما يتضمن أيضاً دراسة العوامل غير الحية مثل خصائص المناخ (الحرارة، الرطوبة، الإشعاعات، غازات المياه والهواء) والخصائص الفيزيائية والكيميائية للأرض والماء والهواء»[٦]. كما وُضعت دراسات خاصة للمحافظة عليها من الملوثات التي تغير من الكم والكيف في مكوناتها الحية وغير الحية فضلاً عن الملوثات الطبيعية ذاتها الناتجة من البيئة نفسها كالغازات وحبوب اللقاح والأتربة وملوثات التقنية البشرية الحديثة[٧].

تُعَدُ العلاقة بين البيئة والإنسان علاقة مواءمة ووطيدة وأساس بقاء الإنسان على وجه الأرض[٨]. تطورت تصوراته بشأنها عبر القرون، فهي تعني المقومات الأساس للحياة

(الأرض والماء والهواء)[٩]. تفاعل الإنسان مع بيئته منذ القدم وحافظ على نوعه وبالفطرة اتجه الى الصيد لتوفير غذائه واكتساء جسده من جلود الحيوانات المختلفة، واستعمل كهوف الجبال والمغارات مأوى له بعدها بدأ بتحسين مستوى معيشته مبتدأً بأدوات صيده ومسكنه وبناء أسرته والتكيف مع بيئته واستئناسها تاركاً الكهوف والمغارات ونزل الى السهول والوديان بمحاذاة الانهار لينشأ مساكنه بيديه وطور نفسه وأصبح له حاجة ملحة في تكوين العشائر والقبائل بعد تكامل ونمو اسرته. واستطاع بقوة عقله وإرادته ان يطور نفسه وان يتغلب على قسوة بيئته المتنوعة فبنى المساكن الضخمة والقلاع الحربية الحصينة وبناء السدود لدرء خطر الفيضانات واستثمار المياه الزائدة لفصل الجفاف. كما انه استمال بيئته والتضرع لها وتقديسها حسب اعتقاده بأن قوى خفية تحركها، فتعبد ما أسماه (آلهة الشمس والقمر والبحار والأنهار والأمطار والبراكين). وبنى على عاتقه منذ نشوئه على سطح الارض وبعصوره كلها مهمة السيطرة على البيئة بشتى الطرق. ولأهميتها للإنسان وبكونها محور حياته اليومية تطلب دراستها من جوانبها كافة.

قسمت البيئة من قبل المختصين بها إلى: بيئة طبيعية تعني المظاهر كلها التي تؤثر في حياة الإنسان دون أن يتدخل في مفردات وجودها كالأرض اليابسة وما تحويها من تضاريس مختلفة والمياه الواسعة المتمثلة في البحار والمحيطات والأنهار المتنوعة فضلا عن الكائنات الحية الموجودة فيها التي تؤثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة في حياة الإنسان. وأخرى مشيدة وتعني المؤسسات والنظم التي شيدها الإنسان نفسه كالبيئة الزراعية، والبيئة الصناعية، والبيئة الصحية، والبيئة الاجتماعية التي تعني الظروف والعوامل الاجتماعية والثقافية المؤثرة في وجود ونمو الفرد والجماعة[١٠] والبيئة الثقافية، والسياسية ...[١١].

عُرِفَتْ البيئة المشيدة من قبل الإنسان الأول حيث علم كيف يهيئ له بيئة مناسبة يعيش فيها فبدأ من البيئة الجاهزة المتمثلة بالمغارات والكهوف التي أجرى عليها بعض التحصينات الملائمة ضد التهديدات الخارجية المختلفة من قبل بعض الضواري القاتلة والمفترسة أو التغيرات في المُناخ على مر فصول السنة[١٢]. وتطورت البيئات المشيدة بتطوره حيث يميل هذا الإنسان بفطرته الطبيعية إلى ترتيب بيئته وفق ما يحب كما هو معلوم... ومرورا بالشواهد الحضرية على مر العصور كحضارتي وادي الرافدين ووادي النيل العريقتين.

تميزت بيئة العراق الطبيعية بتباين أراضيها ففيها الصحراء والجبال والأهوار فضلاً عن نهرين عظيمين هما دجلة والفرات وروافدهما العديدة كما يبدو. فتحتضن هذه الصحراء في ربوعها واحات عدة ومختلفة تسببت في وجود معالم الحياة للإنسان والحيوان على حد سواء... تطلب من إنسان هذه المناطق أن يتخذ التدابير والاحتياجات اللازمة للتكيف فيها فعمد إلى صنع ملابس تقيه شدة الحرارة وحبيبات كثبان الرمل المتطايرة في اغلب أوقات السنة وكذلك البرودة القارسة في فصل الشتاء. كما إن للخيول وأشجار النخيل منزلة خاصة عند العراقي القديم، كما إن للمناطق الجبلية

مكانة مرموقة لديه فتغنى بها ولازمته طيلة حياته والوديان والمروج الخضراء القريبة من الأنهار المختلفة أدت جميعها إلى التباين في المُناخ والأشجار والموارد الطبيعية المتنوعة.

يُفهم من هذا كله بأن مفهوم البيئة يعني: المكونات الطبيعية التي تحويها هذه البيئة، متحدة مع العوامل والظروف التي تعيش فيها الموجودات الأحيائية المختلفة.بيد أن بعض الباحثين قد قسموها إلى قسمين: أولهما (البيئة الطبيعية)، التي تعني المظاهر كافة التي تؤثر في الإنسان من دون أن يتدخل في مفردات وجودها كالأرض اليابسة وما تحويه من تضاريس مختلفة والمياه الواسعة المتمثلة في البحار والمحيطات والأنهار المتنوعة فضلا عن الكائنات الحية الموجودة فيهما والتي تؤثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة في حياة هذا الإنسان، أما القسم الثاني منهما(البيئة المشيدة)، وتعني كل النظم الاجتماعية والمؤسسات التي شيدها الإنسان منذ فجر التاريخ والى اليوم الحاضر، من هنا تنطلق هذه الدراسة وبشيء من التفصيل للوقوف على مآثر الإنسان الذي أثر و تأثر بالبيئة الطبيعية التي شيدها عبر التأريخ، فكانت بيئته الفنية إن صح التعبير فضلاً عن أثره عليها نتيجة لأنشطته المختلفة التي بدورها ولدت بيئات أخر كالحرائق والتوسع العمراني وتهيئة الارض للزراعة والمشاريع الهندسية[١٣].

اتخذ الإنسان القديم، ومنذ فجر التأريخ، الكهوف و المغارات مأوى له، وهذه المساكن كانت قد وهبتها له الطبيعة، فهي، بدون شك، قلاع حصينة ضد عاتيات الدهر الصعبة المتمثلة في الهوام المفترسة وتقلبات المناخ المتعددة على دوام الأيام والأعوام.فكان يمارس مهنة صيد الحيوانات المختلفة لسد رمقه، فطرز بذلك أجمل اللوحات الفنية التي باتت بلا شك مصادر أساسيّة للفنون التشكيلية عامة وفرع الرسم خاصة[١٤]، «حيث عكس الإنسان ما يراه في نفسه على العالم، فحول ظواهر العالم الطبيعية... كصورة محورة متطاولة لحياة الإنسان الانفعالية»[١٥].

استطاع الإنسان، وبنعمة من خالقه سبحانه وتعالى، أن يستفيد من مكونات الطبيعة المختلفة، فقطع الأشجار والصخور ووظفها في إنشاء الأبنية المتنوعة من المعابد والقلاع الحربية والقصور، فكانت، ومازالت بلا مراء، أوابد تأريخية عبر العصور، وخير دليل: ما تركه الفنان الفرعوني القديم والبابلي والآشوري من منحوتات وزخارف وصور، فأضحت مصادر تاريخية للعلم والفن والخبر قد روت ظمأ العربي والغربي ومن حضر[١٦].

● الأثر البيئي في حياة الفنان

البيئة هي المكان الذي يحيى ويموت فيه الإنسان ويمارس فيها نشاطاته المختلفة، حيث تؤثر في سلوكه العام والخاص . العام تجاه الآخرين كالتعاون معهم في شتى المسائل وهو احد مظاهر السلوك الانساني إذ يصبح اجتماعياً عندما يرتبط بسلوك الاشخاص الآخرين ويكون موجهاً إلى سلوكياتهم [١٧] فيلاحظ الألفة والتعاون بينهم من أجل انجاز عمل ما، كحالة الفيضان والحريق وما إلى ذلك . أما الخاص فيقوم الفرد بنشاطات عدة ليتغلب على التقلبات البيئية التي يمكن أن تسبب له مأزقاً على سبيل المثال أو تسعده. وهناك أنواع مختلفة منها كالبيئة الصحراوية والجبلية

والبيئة المتكونة من الأهوار والمستنقعات كذلك البيئة الجوية المتغيرة والبيئة الاجتماعية[١٨].

فـأن هذهِ الأنواع من البيئة يجب أن تدرس بـشيء من التفصيـل عند التطرق إلى أسـلوب فنان مـا، وعند معرفة خصائـص هذهِ الأنواع مـن البيئة، يمكن التوصـل إلى المؤثر الحقيقي في أسـلوب الفنان هذا، أن التأكيد اسـتقر على أهميـة دراسـة التفاعل بين متغـيرات الكائن ومتغيرات المحيط وإيجاد العلاقات بينهما[١٩]، عـلى أن الوسـط الطبيعـي الذي يعيـش فيه الإنسـان والبيئـة الاجتماعية ومـا تحويها من بيئات مشـيدة كالعمارة ومـن ضمنها القلاع والأبنية المتنوعـة التي تحمل فيها عناصر ذات طابع ابتـكاري جميل كالقبـاب[٢٠] والأقواس المختلفة الأحجام والأنواع وقد زينتها الزخارف الهندسـية والنباتيـة والمركبـة منهمـا التـي يمارس الفنـان فيها حياته والنشـاط اليومي كلـه يؤثر في تكوينه الجمـالي، فالطبيعة تقدم لـه جوانب وعناصر جمالية عـدة تثير البهجة والـسرور[٢١]. لذلـك يُـرى في الطبيعـة الظل والضـوء والحياة والموت والحـركات الصوتية والهدوء والمطر وسـقوط الثلـوج وهدير مياه الشـلالات والعواصـف الرمليـة الصحراويـة وغيرها كثيرة تعطي للإنسـان نوعاً من الإثارة تجعلـه أن يفكر بمحاكاتهـا أو يعبر عن ذلك بـأي شيء. كذلك تكون الـضرورة أن تقتضي مـن الفنـان أن يحـول تجربتـه إلى لـون من ألـوان التعبير بحيث يسـلمه أداؤه الفني عنها إلى تعميق أحسـاس الإنسان بالعالم وبالأشياء المحيطة به[٢٢].

يُـرى حيـاة الإنسـان في الريـف الصحـراء مثـلا تتميز بقسـوتها وجفافها وقد سـيطرت عليها حياة الإنسـان البدائـي القديم على اقرب مـا يكون، فأغلب سـكان الصحـراء من البدو الرحل متنقلون من مكان إلى آخر تبعاً لمصادر العيش كالماء والـكلأ، ومع حياة هؤلاء الصعبة واهتمامهـم بالعيـش، فأنهـم أيضـا امتـازوا بالتفنن مثلا في الأزياء والوشم والأصباغ خاصة الحناء فضلا إلى ذلك الحياكة بأنواعها المختلفة، وتجسيد الملاحم البطولية للملوك وأمراء الحرب ومشاهد الصيد المختلفة وتمثيل الحياة اليومية كما أنجزها الفنانون الذين عاشـوا في مثل هذهِ البيئـة فيرى غالبـا ما يتغزلان بهـا عن طريق إحيائهـا بلوحاتهـم فيبدو فيهـا التأثير البيئي عليهم واضحاً بجلاء فضلا إلى ذلك أن هذهِ البيئة تمثـل تراثهم الأصيل، على أنهم لا يسـتطيعون أن يتجـاوزوا مجتمعهم بـل يحاولون التفاعل معـه لأنهـم منـه (أن لكل فـرد دافعـاً يدفعه للانتماء إلى جماعة معينة من البشر ويحتاج إلى تقديرهم وحبهـم واحترامهم له. أن هذا كله لا يتم إلا بالتفاعل معهم وتقبل القواعد والأحكام والأعراف الاجتماعية السلوكية السائدة لديهم. والتي اتفق على أن نسميها (بالمعايير الاجتماعية للسلوك)[٢٣].

لذلـك فعلى الفنان أن يعيـد النظر في بيئته والتربـة المحيطة بهِ وأن يكون أمينا بدراسـته لمجتمعه ويعـرض عيوبه وينقب عن تفاصيل الحيـاة اليوميـة، ومـا طـرأ عليها مـن تغيير وتطويـر ورصد الأحداث لبـذر أجمل الأفكار وأحسـن الصور وتهيئة الجو المناسب، وينشر في أرجـاء بيئتـه (الفنـان)، أروع مـا أنتجـه فكـره من قيـم حقيقية نافعة تسـود المجتمع وتطرد الشـوائب الزائفة الدخيلـة عليه، لذلك فـان التأثـيرات البيئية تجعل الفنـان العريق

أن يفكـر وان هذا التفكير يجعل منه أن يبتكر ويبـدع لينتـج بعد ذلـك عملا مـا بتأثير هذه البيئـة التي أثـرت عليه وبمشـاعره بمختلف صورهـا[٢٤]، «من المؤكد مع ذلـك انه لا يمكن أن يقـوم فن بدون فكـر، اللهم إلا إذا أمكن أن يقـوم شـكل بدون مضمـون، أو صورة بدون موضوع..»[٢٥].

لـكل فنـان أسـلوبه[٢٦] الخاص حيـث يُعَدُ وسيلة من وسـائل التعبير له، فهو بدون شك طريـق يتبناه ويتخـذه، ويعرف بـه ويطلق عند الفلاسـفة عـلى كيفية التعبـير من خلاله عـن الأفـكار وتتبنى أنـواع حركيـة متنوعة يجسـدها في هذه الأفكار[٢٧] «إن الأسـلوب هو الإنسان، ومعنى ذلك إن الأسلوب هو الصيغة، أو التأليف الذي يرسم خصال المرء وسجاياه، والمذهـب الذي يذهبه كل واحـد من الكتاب في التأليـف بـين ألفاظه وصوره ... إن الأسـلوب لا يختلف باختلاف الكُتاب فحسب، بل يختلف باختلاف العصور أيضا، لان لكل عصر أسلوبه في التعبير عن المشاعر والأفكار بالكتابة، أو التصوير أو الموسيقى كما إن لكل فنان أصيل طريقته في جميع الصـور والخطوط، والألـوان، والأصوات للتعبير عن المعاني التي يتصورها» [٢٨]. فمعدن الأسـلوب ... مـا يقـوم في اللغـة من وسـائل تعبيريـة تبرز المفارقـات العاطفيـة والإرادية والجمالية بل حتى الاجتماعية والنفسية، فهي إذن تنكشـف أولا وبالـذات في اللغة الشـائعة التلقائية قبل أن تبرز في الأثر الفني[٢٩].

عـلى إن الأسـلوب الجـاف ذا اللـون الممل، الفاقـد للحرارة، لا يـترك أي أثر في النفس ولا يُحركهـا كمـا في الأسـلوب الطبيعي البسـيط ذي المشـاعر الوجدانيـة المُثـيرة، كذلك يوجد إلى جانب الأساليب أسـلوب شامل يصلح لكل مـكان وزمـان فهـو طريقـة كليـة تعبر عن الكيفية التـي يتأثر بها العقل في الطبيعة. وفي هذا يمكن أن يكون مثلا أعلى لما يملكه الدهر من الثبوت على مرور السنين كما يبدو، فان تلك الأساليب تختلف باختلاف الأفراد والجماعات اختلافـا جذريـاً[٣٠]. فهـي متغـيرة حسـب التأمـلات والأحوال لأنها صدرت من الإنسـان نفسـه أو أنتهجهـا كيفما شـاء. إذن فإن لكل فرد أسـلوبه قد يتطابق أو يختلف مع أقرانه ببعض الـشيء، وبما إن الفن صفة من صفات الأسـلوب، فهو بدون شـك (طريقة للمعرفة، وعالم الفن أو نهج للمعرفة ذو قيمة للإنسـان شأنه شـأن عالم الفلسـفة أو عالم العلم)[٣١]، لهـذا فالفنان هو الذي يسـلك هـذه الطريقة لتوصلـه إلى الحقائـق المعرفية التـي لا يمكن أن يحصل عليها إلا مـن خلال بحثه وتقصيه الفني، وبذلك فهو يتبع أسـلوباً معيناً يسـمى باسـمه عادة. فالشاعر كذلك له سمات الفنان (أما الشـعر فهو فن تكون وسيلة اللغة فيه في الصدارة بصفة خاصة، ولا يمكن فيه للشـاعر أو المستمع أو القارئ أن ينسى اللغة التي يصاغ فيها)[٣٢]، ولهذا فان الشاعر(صائغ الكلمات)، فهذهِ الصياغة تكون ذات أسلوب معين يتخذه الشـاعر فيكنى به كأن يكون حزن أو فرح أو غيرها . ولهذا فأن أسـلوب الشاعر يتطابق مع أسلوب الفنان من ناحية الطريقة التي يعبر كل واحد منهما عما يشعر به، بحسب اختصاصه (أي الاختلاف في الوسيلة التعبيرية). وبحسب أن (النشـاط الفني ذاته هـو صورة من صور الذكاء)[٣٣]، أذن يكون منهج الفنان وأسـلوبه نابعين من فكره الخصب كذلك الشـاعر، يعد

الاســتعانة بخير ما في تراثــه ليعيد صياغته في أسلوبه الخاص.

لا يتحدد الأسلوب في الشعر أو الفن فحسب بل يتعــدى فيُطلق في علــم الاجتماع والأخلاق عــلى منهج الأفراد والجماعات الذي يســلكونه في إعمالهــم ومن قولهم أســلوب الحياة ومن معانيــه إطلاقه على طريقة المؤلف في تنســيق أفكاره، فهو بهذا المعنى الترتيب والانســجام . فهو بــلا ريب فنٌ متعــدد ومتباين بين الأفراد والمجتمعات .

● مآثر البيئة الطبيعية في الفن العراق القديم

اكتســبت البيئة العراقية منــذ القدم مكاناً مرموقاً ومتميزاً لوقوعها في قلب العالم القديم متمثلاً بأقطــار الشرق الادنــى القديم إذ يقع في الجــزء الجنوبي لقارة آســيا[٣٤]. يجري من شــماله إلى جنوبه دجلة والفــرات وهما نهران عظيمــان توأمان كســباه أهمية كبيرة كما هي منزلــة النيل في مصر[٣٥]، ولعبــا دوراً كبيراً في حركــة المواصلات الداخلية وتشــجيع التجارة والحمــلات العســكرية ونقــل تأثيرهمــا إلى الاقاليــم المجــاورة[٣٦]، ومــن خلالهما ظهرت أعظــم الحضــارات وأصبحــت أهــم المناطــق العالميــة تقدمــاً في فنــون الــري واســتثمار الاراضي والاســتفادة من البيئة الطبيعية التي تحيطها[٣٧]، شــجعت هــذه البيئــة الطبيعية الفنان العراقي بأن يوظف مفرداتها في أعمال شتى تعالج موضوعات مهمة كأن تكون دينية أو سياسية أو اجتماعية أو عسكرية أو حياتية يوميــة. بلغــت ذروتهــا في الالــف الثاني قبل الميــلاد بصيغ النحت المجســم والبارز والغائر وفي الاختــام الاســطوانية والأوانــي الفخارية وتزويقهــا، ولوحات لرســومات فنية جميلة لا تعبر إلا عن ذوق رفيــع ومهارة عالية ودقة في التنفيذ، أُســتلهمها الفنان العراقي القديم من بيئته التي تمتاز بمنهج فلسفي لروحية خاصة هــو تأويــل دلالات ذات قيمة إبداعيــة عالية، ولمســات جمالية يحققها الفنــان مع التقارب الشــاعري بين أشــياء مألوفة جداً . تنتزع من حالتهــا الطبيعيــة لتحويلهــا إلى اســتعارات شكلية متنوعة ذات آفاق أبداعية تبدأ بوساطة الإنســان ذاته، وتأكيــد حقه بتجــاوزه البيئة الطبيعة التي أســتنبط موضوعاتــه كلها منها عــلى وفق مقاييس جمالية جديــدة تمثل ذلك بالمآثــر الفنيــة والأدبيــة التــي ولــدت من أيد جعلت مــن الرقيــم الطيني والأقــلام المبتكرة المتمثلة من حافات القصب المتباينة في الأحجام لتُنشــا أســاطير وقصصــاً، بحرفٍ مســماري الشــكل ذي صورة حســية مطابقة له واقعياً ليُطلِــق عليه بالحــرف المســماري، وبإتحاده بحروف أُخر من جنسه يُنشأ كلمة ومنها تُنشأ جمل ثــم نصــوص لقوانين موســوعية متزنة وصارمة ذات قيمــة علمية غاية في الدقة غذت البــشر على وجه المعمورة بســيل لا ينقطع من المعارف والى اليوم يحــاول العلم الوقوف على سرائرها. وبذلك بــرع الفنان العراقي القديم مــن خلال تعبيره المباشر للمــدركات البصرية ســواء أكانت للأشــكال أم الألوان أم العناصر التي تقــع في محيط بيئته الطبيعية والمشــيدة كالحمــلات العســكرية وحمــلات الصيــد في الغابات والاهوار ومحــاذاة الانهار والصحراء والمراســيم الدينيــة والسياســية. تظهــر في تلــك الأعمــال الفنيــة العديــدة معالــم البيئة الطبيعية كالنخلة المقدســة وأشجار الصنوبر والحشــائش والقصــب والــبردي والطيــور

والحيوانات البرية المتنوعة فضلاً عن الاسماك. فيما يلي مشاهد متنوعة لمآثر البيئة الطبيعية في الفن العراقي القديم، كرس الباحث على شجرة النخلة المقدسة كونها جزءاً من البيئة المحيطة بالفنان العراقي القديم: لتسجيل تاريخه وأحداثه اليومية في صيغ تعبيرية ذات مضامين جمالية متنوعة(شكل ١). كانت جلّ موضوعاته مستمدة من المعتقدات الدينية والحياة السياسية بل كان أثرها واضحاً على طبيعة الفن في التراث العراقي القديم، حيث تعد العقيدة الدينية والسياسية المظهر الأساس لتلك الفنون، حمل خصائصه مما تضمنته من معانٍ وقيم نفسية ودلالاتها الاجتماعية، من خلال ذلك استطاع الفنان العراقي الاول أن يوظف الخامات المختلفة والوسائل ومفاهيم تراثه الثر لخلق تجارب فنية أصيلة وقدم مجموعة من القيم والمفاهيم التي يمكن اكتشافها في الأعمال الفنية العديدة الحسية والرمزية والوظيفية والتعبيرية التي أنشأها مرتبطة بعناصر العمل الفني جميعها كالتكوين المعبر والتقنيات والخامات المختلفة والخطوط المعبرة والألوان فضلاً عن ذلك الأفكار التي تُعبر عن ابداع اصيل يوازي المكان المرموق المتميز الذي يشغله العراق في تلك الفترة. ويمكن ربطها بتلك النشاطات الفنية من خلال الرسوم التي تزين المعابد والقصور التي حققت بلا أدنى شك خطوات مهمة في إرساء القواعد الفنية، بما يتلاءم وتركيبتها الروحية والثقافية وبرز ذلك واضحاً من خلال الأعماله المرسومة المتنوعة والتكوينات في مشاهد تلك الجداريات الناطقة أستمد جلّ موضوعاته من مفردات بيئته المتنوعة كان أبرزها (النخلة) التي نالت مكاناً مرموقاً عبر تاريخها وباتت مضربا للأمثال في العطاء والسخاء.

لعبت البيئة الطبيعية دورا مميزاً ملموسا في حياة العراقيين القدماء(شكل ٢)، وردت في كثير من النصوص المسمارية أسماء للنخلة وأجزاؤها السعف والليف واستعمالاته في كثير من الصناعات اهتم العراقيون القدماء بزراعتها والعناية بها، وان قوانين حمورابي خصصت مواد من احكامها لحماية البيئة

الشكل (١) يمثل نقش، النخلة المقدسة، مخلفات النقوش السومرية للنخل ،العهد السومري.

الطبيعيــة والمحافظة عليهــا والاهتمام بزراعة النخيل والمعاملات الخاصة به، وفرض الغرامة عــلى كل من يهمــل العناية ببســتان النخل او يقطــع نخلة. كانــت مصدر الهــام للكثير من الفنانين على مر العصور كعنصر زخرفي مميز يعبر عن البيئة الطبيعيــة العراقية التي كانت في القديــم حيث صورها في الكثير من مخلفاته الفنية من منحوتات حجرية ومن العاج وأختام إسطوانية.

رافقــت الزخرفة في نشــأتها فن التصوير في الحضارتــين المصرية والرافدينيــة، حيث بدت الزخــارف المصريــة في عمارة الأعمــدة المزينة بعنصر سعف النخيل أو ورق البردي أو زهرة اللوتــس. وتبدو الزخارف المصرية المســتوحاة أيضــاً مــن النباتــات في الأثــاث المكتشــف في مقبرة تــوت عنــخ آمــون في الحــلي المرصعة. وثمة حليــات زخرفية مســتوحاة من الحيوان كالجعران والنســور ناشرة أجنحتها، ورؤوس

الشكل(٢) جلسة عائلة ملكية في مزارع النخيل.

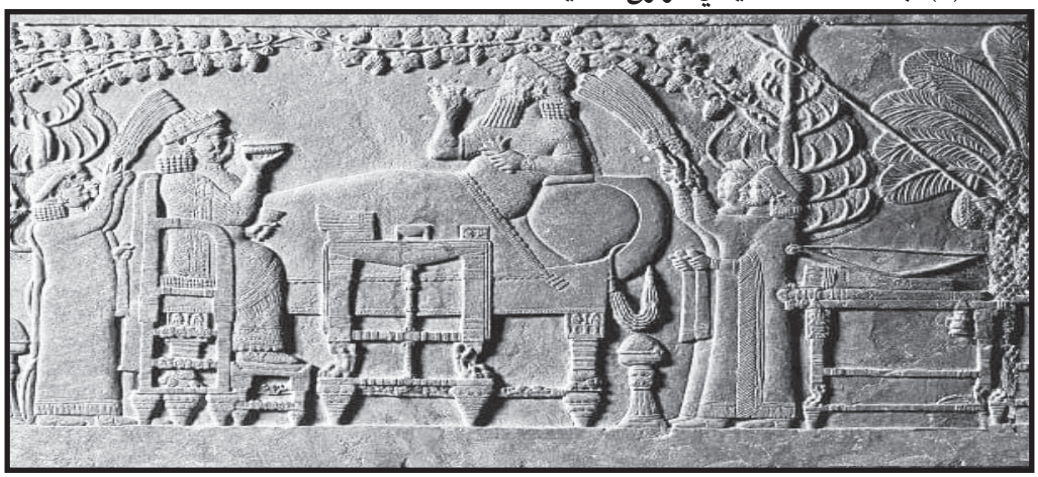

الشكل (٣) يمثل تخطيط لرسم جداري لتنصيب الملك زمري لم.

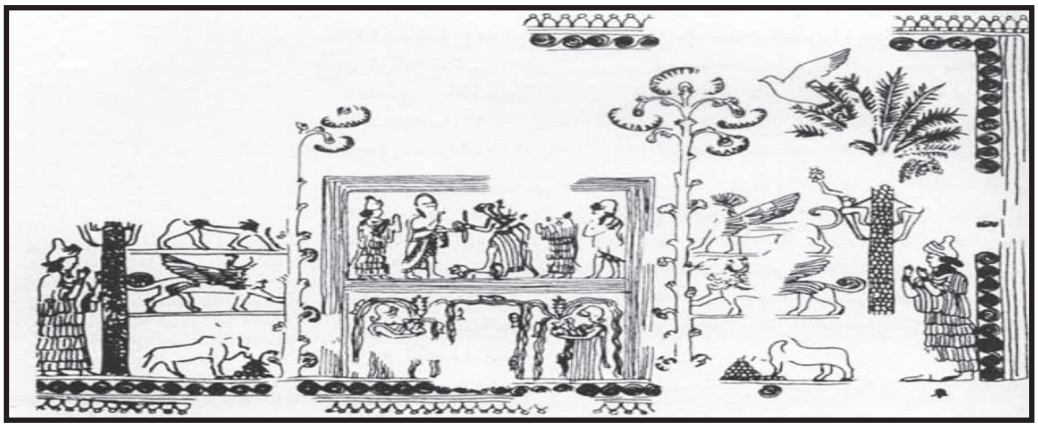

السباع، عدا حليات مزينة بزخارف هندسية هي غالباً إطارات للموضوعات السابقة. وفي بلاد الرافدين تبدو الزخارف المعمارية واضحة في الشراشيف العليا فوق الجدران، وفي المحاريب المضلعة التي تكسو الواجهات المعمارية. وتبدو الزخارف واضحة على الأواني السومرية، وعلى جدران المعابد والقصور الآشورية، وعلى واجهات المباني البابلية، وهي رسوم بارزة خزفية ملونة تمثل المعبودات على شكل حيوانات أسطورية.

ويؤكد هنا على استلهام (الأشكال النباتية) من البيئة الطبيعية، والتي تمثل عنوانا لأرض الرافدين ورمزا سومريا وأكديا وبابليا وأشوريا قديما وهي الشجره المقدسة و(شجره الحياة) لديهم، وتعد رمزا لعطاء الأرض والثروة الزراعية فضلاً عن ذلك (السنبلة) التي تمثل بعض هذه الاعتبارات. وبالتالي فكل ذلك من مؤثرات البيئة الطبيعية (النباتية) على مفهوم الرمزية في فكر الفنان والعراقيين القدماء.

ومن بين الدراسات الجمالية التي برزت، هي (مورفولوجيا الأشكال) التي تعني بدراسة بنية الأشياء أو أشكالها(وبات واضحا ومما هو متميز أيضا في عهود موغلة في تاريخ الفن القديم، الإبداعات التي قدمها الفنانون العراقيون القدماء، والتي شكل بعض منها جمالية رائعة لأشكال الكائنات الطبيعية(الحية وغير الحية)، وذلك بتحوير وتركيب هذه الأشكال الى مفردات ورموز ووحدات زخرفية كان لها أغراضها(الدينية_ الطقوسية) أو (الدنيوية_السياسية) والتي أصبحت معروفة للجميع . وكان من بين ماهو غير معروف لدى المختصين والباحثين هو نوع الشجرة التي حورت تحويرا مورفولوجيا رائعا عن الشجرة الأصل والتي اتخذت موقعين مهمين ورئيسيين على جانبي الجزء المركزي(لجدارية تنصيب الملك زمري لم) في ماري في العصر البابلي القديم(٢٠٠٣-١٥٩٤ق.م (..يعود تاريخ تنفيذ الجدارية الى عام (١٧٦٠ ق.م من القرن ١٨ ق.م) من زمن الملك زمري لم الذي يدور حوله الموضوع الرئيسي للجدارية، أثناء تتويجه ملكا على مدينة ماري، (شكل ٣)

●الخاتمة

بعد استيفاء معالم خطة هذه الدراسة يبدو انها فتحت آفاقاً كبرى للتساؤلات حول أثر البيئة في الفن العراقي القديم، وكيفية توظيفها في تجسيد التراث المحلي العراقي في عصور ولوجه على هذه الارض بمراحلها كلها، حاولت هذه الدراسة الإجابة عنها، ومن خلالها تم استنباط النتائج التالية:

١.ظهر بأن هناك بيئات عدة: طبيعية واجتماعية واقتصادية... اهمها الطبيعية اثرت بشكل مباشر في حياة الفنان العراقي القديم ثم على منجزاته الفنية المختلفة.

٢. لم يخلُ أي عمل فني من أحد عناصر البيئة الطبيعية كونها المحرك المباشر لمشاعر الفنان وأحاسيسه فضلاً عن الجانب الاقتصادي المهم الذي توفره له.

٣.تكررت العناصر البيئية كالنباتات والحيوانات والطيور والمياه في اغلب الاعمال الفنية.

٤.أستعمل الاسلوب الواقعي في اغلب الاحيان ثم التجريدي في الرسومات او الاعمال النحتية او في الاختام الاسطوانية.

● الهوامش:

(١) برتيليمي، جان، بحث في علم الجمال، تر: الدكتور انور عبد العزيز، مراجعة الدكتور نظمي لوقا، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، ١٩٧٠ ، ص٥٥.

(٢) ابن منظور(أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب،ج٥ –ج٦، دار صادر بيروت، لبنان، ١٩٥٥ م.

(٣) جميل صليبا، المعجم الفلسفي الصغير، ط١، ج١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧١، ص٣٧.

(٤)ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١٩٩٩،٣م، ج١،ص٥٣١.

(٥) جميل صليبا، المرجع السابق، ص٢٢٠ ـ٢٢١.

(٦)للتفصيل ينظر في هذا الموقع:
https://www.ixwebhosting.com/templates/ix/v2/affiliate/clickthru.cgi?id=qlaith

(٧)الحمد، رشيد ومحمد سعيد صباريني، البيئة ومشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة(٢٢)، الكويت، ١٩٧٩م، ص١٢٠.

(٨)الجميلي، السيد، الإسلام والبيئة(دراسة علمية إسلامية طبية)، مركز الكتاب للنشر، ط١، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧ م، ص ١٤.

(٩) البهنساوي، أحمد علي سليم، المشاكل البيئية الناتجة عن النمو العمراني للقاهرة الكبرى، المؤتمر القومي الرابع للدراسات والبحوث البيئية، جامعة عين شمس، ١٩٩٤، م٤، ص١٥، ١٧.

(١٠) شهاب، دينا، الجوانب الاجتماعية/ البيئية المتداخلة بين الإنسان والبيئة بعد في التصميم، رسالة ماجستير. جامعة القاهرة، ١٩٨٩، ص ١٦٧.

(11)https://www.ixwebhosting.com/templates/ix/v2/affiliate/clickthru.cgi?id=qlaith

(١٢) مجلة الأمارات للبحوث الهندسية، المجلد العاشر، رقم(١)،٢٠٠٥،ص٩.

(١٣) غرايبة، سامح حسين ويحيى الفرحان، المدخل الى العلوم البيئية، دار الشروق، ١٩٨٥م، ص٩٥-١٠١.

(١٤) يونان، رمسيس، دراسات في الفن،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ،١٩٦٩ م،ص١٩٤

(١٥)الكيلاني، شمس الدين، من العود الأبدي إلى الوعي التاريخي: الأسطورة . الدين . الايدولوجيا . العلم «، ط١، دار الكنوز الأدبية، بيروت-لبنان، ص١٠.

(١٦) مونتكمري وتأثير الاسلام على أوروبا «في العصور الوسطى»، ترجمة: د.عادل نجم عبو، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص١٨.

(١٧) ويبر ماكس. مقالات في علم الاجتماع. هـ. هـ. جرث وويت. نيويورك، ١٩٤٦، ص ٦٤.

(١٨) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت لبنان، ١٩٨٢م، ص٢٢٠-٢٢١.

(١٩)الشماع، نعيمة، الشخصية، (النظرية ،التقييم ، مناهج البحث)، مطبعة جامعة بغداد، بغداد،١٩٨١م، ص١٤١.

(٢٠) القبة شكل من الأشكال المعمارية التي تمتد جذورها إلى حضارة وادي الرافدين والنيل، فيمكن أن نجد الأبنية المقببة بقبة أو القبوات الاسطوانية، في العمائر القديمة من مدن سومر وآشور وبابل ثم انتقلت مع بقية الفنون الأخرى إلى أرجاء الشرق القديم، وكان للحضارة العربية الإسلامية دور كبير في تطورها . القبة من فنون الازج(وهو، مصطلح عماري يستعمل للدلالة على كل سقف شيد مقوساً، كما استعملت للدلالة على معنى مصطلحات أخرى، منها العقد، الطاق، القبو، ألحنية. ينظر الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص١٧٧. وكذلك: بطرس البستاني، محيط الفنون، ج١، ص١٩.

(٢١) محمد سعيد، أبو طالب، علم النفس الفني، مطبعة التعليم العالي بالموصل، الموصل، (١٤١٠هـ-١٩٩٠م)، ص٢٥٩.

(٢٢) مجلة الكلمة، العدد الأول، السنة الرابعة،كانون الثاني، مطبعة دار الساعة، بغداد،١٩٧٢م، ص٤.

(٢٣) السامرائي، هاشم جاسم، المدخل في علم النفس، مطبعة منير، ١٤٠٨هـ _١٩٨٨م، ص٩٢.
(٢٤) رأفت علي، ثلاثية الابداع المعماري، مطابع الشروق، ط١،١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص٢٤٣.
(٢٥) ابراهيم، زكريا، الفنان والانسان، مكتبة غريب، القاهرة، (د.ت)، ص٢٢٦.
(٢٦) الأسلوب: style (سلب)، جمع أساليب: ١- نهج خاص في الكتابة والتعبير عن الأفكار. ينظر ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٤٧١.
(٢٧) صليبا، جميل، المصدر السابق، ص٨٠ .
(٢٨) المصدر ذاته.
(٢٩) المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط٣، {ب. ت}، ص٤١.جيرو، بيير، الأسلوبية، ترجمة: الدكتور منذر عياشي، مركز الإحياء الإنمائي، دار الحاسوب للطباعة – حلب، ط٢، ١٩٩٤، ص٢٨وما بعدها. بن ذريل، عدنان، النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، من منشورات الاتحاد العرب، مطبعة اتحاد الكتاب العربي، دمشق، ٢٠٠٠م، ص٤٣.
(٣٠) صليبا، جميل، المصدر السابق، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧١، ص٨١.
(٣١)ريد، هربرت، الفن والمجتمع، دار القلم، بيروت،١٩٧٥م، ص١٧.
(٣٢) إدمان، أوربي، الفنون والإنسان مقدمة موجزة لعلم الجمال، دار مصر للطباعة، القاهرة، [و.ت]،ص٦١. جيرو، بيير، الأسلوبية، ترجمة الدكتور منذر عياشي، مركز الإحياء الإنمائي، دار الحاسوب للطباعة، حلب، ط٢، ١٩٩٤، ص٢٨وما بعدها.
(٣٣) إبراهيم، زكريا، الفنان والإنسان، مكتبة غريب، القاهرة،[د.ت]،ص٢٢٦.
(٣٤) باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، ١٩٨٦م، ج١، ص٢٥.
(٣٥)جورج، رو، العراق القديم، ترجمة حسين علوان حسين، ١٩٨٤، ص٢٣.
(٣٦)الدباغ، تقي، العراق في التاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٣م، ص٢١.
(٣٧) سوسه، أحمد، تطور الري في العراق، بغداد، ١٩٤٦، ص٣.

●المصادر

القرآن الكريم
-إبراهيم، زكريا، الفنان والإنسان، مكتبة غريب، القاهرة،[د.ت].
-ابن منظور(محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي – ٧١١ هـ)،معجم لسان العرب،ج٥ –ج٦، دار صادر بيروت، لبنان، ١٩٥٥ م.
-إدمان، أوربي، الفنون والإنسان مقدمة موجزة لعلم الجمال، دار مصر للطباعة، القاهرة، [و.ت].
٤.ألجميلي، السيد، الإسلام والبيئة(دراسة علمية إسلامية طبية)، الناشر: مركز الكتاب للنشر، ط١، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م.
-باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، ١٩٨٦م، ج١.
-برتيليمي، جان، بحث في علم الجمال، تر: الدكتور انور عبد العزيز، مراجعة الدكتور نظمي لوقا، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، ١٩٧٠.
-بطرس البستاني، محيط الفنون.
-ابن ذريل، عدنان، النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، من منشورات الاتحاد العربي، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠م.
-البهنساوي، أحمد علي سليم، المشاكل البيئية الناتجة عن النمو العمراني للقاهرة الكبرى، المؤتمر القومي الرابع للدراسات والبحوث البيئية، جامعة عين شمس، ١٩٩٤.
-جورج، رو، العراق القديم، تر: حسين علوان حسين، ١٩٨٤.
-جيرو، بيير، الأسلوبية، تر: الدكتور منذر عياشي، مركز الإحياء الإنمائي، دار الحاسوب للطباعة – حلب، ط٢، ١٩٩٤.
-الحمد، رشيد ومحمد سعيد صبارينى، البيئة

ومشـكلاتها، سلسـلة عالـم المعرفـة(٢٢)، الكويت، ١٩٧٩م.
-الدباغ، تقي، العراق في التاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٣م.
-رأفت علي، ثلاثية الابـداع المعماري، مطابع الشروق، ط١،١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
- ريـد، هربـرت، الفـن والمجتمـع، دار القلـم، بيروت،١٩٧٥م.
-ريدي، جي، النحت الآشوري، لندن، ١٩٨٣ .
-السـامرائي، هاشـم جاسـم، المدخل في علم النفس، مطبعة منير، ١٤٠٨هـ _١٩٨٨م.
-سوسه، أحمد، تطور الري في العراق، بغداد، ١٩٤٦.
-الشـماع، نعيمة،الشـخصية،(النظرية، التقييـم، مناهـج البحـث)، مطبعـة جامعـة بغـداد، بغـداد،١٩٨١م.
-شـهاب، دينا، الجوانب الاجتماعية/البيئية المتداخلة بـين الإنسـان والبيئـة ؛ بعـد في التصميم، ماجسـتير ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٨٩.
- الصاغانـي ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، الحسـن بن محمد بن الحسـن بن حيدر العدوي العمري الصاغاني، العباب الزاخر واللباب الفاهخر.
- صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت لبنان، ١٩٨٢م.
-الطالقاني، أبو القاسم إسماعيل ابن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس، المحيط في اللغة، تحقيق: الشيخ محمد حسـن آل ياسين، عالم الكتب - بيروت -لبنان، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
-غرايبة، سـامح حسـين ويحيى الفرحان، المدخل الى العلوم البيئية، دار الشروق، ١٩٨٥م.
-الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١.
-الكيلاني، شـمس الدين، من العـود الأبدي إلى الوعي التاريخي: الأسطورة . الدين . الايدولوجيا. العلم، ط١، دار الكنوز الأدبية.
-مجلـة الأمارات للبحـوث الهندسـية، المجلد العاشر، رقم(١)،٢٠٠٥.
-مجلـة الكلمة،العـدد الأول، السـنة الرابعة،كانـون الثاني، مطبعة دار الساعة، بغداد،١٩٧٢م.
-محمـد سـعيد، أبـو طالـب، علـم النفـس الفنـي، مطبعـة التعليم العالي بالموصـل، الموصل، (١٤١٠هـ -١٩٩٠م).
- المسـدي، عبد السـلام، الأسـلوبية والأسـلوب، الدار العربية للكتاب، ط٣، { ب. ت}.
-مسـعود، جـبران، الرائد(معجم لغـوي عصري، دار العلـم للملايين، بـيروت – لبنـان، ط٧، آذار/ مارس، ١٩٩٢.
-مورتكات، انطون، الفن في العراق القديم، تر: عيسى سلمان وسـليم طـه التكريتي، بغداد:مطبعة الاديب البغدادية، ١٩٧٥.
-مونتكمـري واط، وتأثـير الاسـلام عـلى أوروبـا «في العصـور الوسـطى»، ترجمـة: د.عـادل نجـم عبو،ط١،١٤٠٢ هـ/١٩٨٢.
-نان، أستريد، الحياة اليومية في الشرق القديم، فيليب فون زابرن فيرلاج، ٢٠٠٦.
-ويـبر ماكس. مقالات في علم الاجتماع. هـ. هـ. جرث وويت. نيويورك ،١٩٤٦.
-يونان، رمسـيس، دراسات في الفن،المؤسسة المصرية العامـة للتأليف والنشر، دار الكاتـب العربي للطباعة والنشر ،١٩٦٩ م.
https://www.ixwebhosting.com/templates/ix/v2/affiliate/clickthru.cgi?id=qlaith
-https://www.ixwebhosting.com/templates/ix/v2/affiliate/clickthru.cgi?id=qlaith.

The impact of the natural environment in the ancient Iraqi art

By: Mahmmoud Hussein Abdulrahman

Iraqi Natural History Museum & Research Center / University of Baghdad

Abstract

The aim of this study was to uncover the impact of the natural environment in the old Iraqi art as a fundamental and aesthetic element in its composition. And to identify the technology carried out. The limits of this study were (the selection of some of the works of art from 3000-562 BC), obtained by the researcher from national museums and cultural publications as well as to the technical sources). The importance of this study is to shed light on the natural environment and its impact on the old Iraqi art and contribute to providing libraries with other knowledge. Three aspects: the first: the concept of the environment and human harmony, and the second effect of the natural environment in the life of the artist. The third is the exploits of the natural environment in ancient Iraq art. This study was able to achieve its goal, which is to reach the exploits of the natural environment in ancient Iraqi art, as it provides the requirements of existence and the important backbone of art and the artist alike.